

رفاعة الطهطاوى والفكر الراديكالى

وتطوير التعليم

كان الإتصال بالغرب، فى العالم الإسلامى فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن العشرين، سريع ومتواصل. ففي عام ١٨٣٣ م، بعث إبراهيم باشا رسالة إلى السلطان محمود الثانى فى تركيا قال فيها: "إن محاولة النهضة لا تبدأ بتزويد الشعب بالملابس الضيقة والبنطلونات. وكان الأولى بالباب العالى أن يهتم بتنوير الأذهان أولاً"

وفى عام ١٨٦٠م، جاءت مجموعة من الأتراك تنادى بتطوير قوانين الإمبراطورية العثمانية. حتى تكون على النمط الأوروبى. وفى مصر، صعد إلى الحكم إسماعيل باشا، ابن إبراهيم باشا، ذو الثقافة الفرنسية. وفى نفس الوقت فى تونس، ظهرت مجموعة من المصلحين على رأسها خير الدين. وفى سوريا ولبنان، لعب المسيحيون الشوام دورا هاما فى نقل الثقافة الأوروبية إلى الشرق الأوسط عن طريق الترجمة والصحافة. فهم أول من أقام الصحافة الحديثة فى العالم العربى.

وبدأت تظهر دعوات للإصلاح تناقش موضوعات وتطرح أسئلة هامة مثل: هل دعاوى الإصلاح يجب أن تكون مقصورة على مبادئ الشريعة الإسلامية؟ أم من الضرورى الإستفادة من التجربة والثقافة الأوروبية؟ وهل هناك تعارض بين تعاليم الدين الحنيف وبين حضارة الغرب؟

هذه القضايا، حاول كتاب النهضة فى العالم الإسلامى الإجابة عليها. فمثلا، ظهر فى الدولة العثمانية فى ذلك الوقت كتاب مثل صادق رفعت باشا، وضياء باشا ونامق كمال. نادوا بالانفتاح على الغرب. مع الاحتفاظ بالقيم والتعاليم الإسلامية. وفى شئون الحكم، كانوا يطالبون بالديموقراطية، التى تأخذ بالنظام البرلمانى الحديث، كأسلوب متطور لنظام الشورى فى الإسلام.

وفى مصر، ظهرت مجموعة أخرى من الكتاب الليبراليين. أمثال رفاعة الطهطاوى (١٨٠١-١٨٧٣م). تنادى بالإصلاح السياسى والتطوير، مع الاحتفاظ بالقيم والمبادئ الإسلامية. ولكن من هو رفاعة الطهطاوى هذا؟ وما هى أفكاره؟

لقد تركت أفكار الثورة الفرنسية رواسب عميقة داخل نفسه بالرغم من تعليمه الأزهرى السابق. فقد كان يعتقد أن المجتمع الصالح، هو المجتمع المبنى على أسس العدالة. وأن الهدف من الحكومات، هو رعاية مصالح المحكومين. وأن الشعب لا بد له من المشاركة فى الحكم. لذلك يجب إعداد أفراد الشعب لهذا الغرض.

وكان يرى أن القانون يجب أن يكون ديناميكى. يتغير تبعا للظروف. وأن الحكام الصالحين فى وقت ما، ليسوا بالضرورة صالحين فى كل وقت. وأن حب الوطن هو أساس كل الأخلاق السياسية. وأثناء إقامته فى باريس، قام الطهطاوى بالإتصال بعلماء الحملة الفرنسية المستشرقين. وكانت حضارة مصر القديمة قد ملكت عليه كل وجدانه. وكان هذا يدل على فهم

الطهطاوى الصحيح والمبكر لقضية الأصالة والمعاصرة. ووعيه العميق لمعنى الكلمات التى خاطب بها أحد علماء الحملة الفرنسية (جومار)، طلاب البعثة المصرية فى حفل أقيم عام ١٨٢٨م لتوزيع الجوائز على الناجحين حيث يقول: "إنكم منتدبون لتجديد وطنكم الذى سوف يكون سببا فى تمدين الشرق بأسره... أمامكم مناهل العرفان فاغترفوا منها بكلتا يديكم ..."

وعندما عاد الطهطاوى إلى مصر، نشر ملاحظاته عن المجتمع الفرنسى فى كتاب تخليص الإبريز فى تلخيص باريز. الذى ترجم إلى اللغة التركية وعدة لغات أخرى. وبه ملاحظات الطهطاوى عن الشعب الفرنسى. فهم محبوبون للنظافة وتعليم الأولاد. ومحبون للعمل، ولا يميلون إلى الكسل. وبهم شغف للمعرفة والإستطلاع . وفى علاقاتهم العامة، يثقون فى بعضهم البعض. ونادرا ما يخدع أحدهم الآخر.

يحتل كتابه تخليص الإبريز أهمية خاصة بين تلك المؤلفات. فهو بحق أول نافذة أطل منها العقل العربى على الحضارة الغربية الحديثة. ويعتبر أشهر كتب الرحلات العربية فى العصر الحديث . والبيان الفكرى الأول للبرجوازية المصرية الناشئة. وأول كتاب عربى يعرف الفكر الليبرالى من ناحيته النظرية والتطبيقية . إلى جانب عرضه لنظم الحكم الدستورية الأوروبية. أهم ما فى الكتاب، الفصول التى تتعرض لوثيقة إعلان حقوق الإنسان التى جسدتها الثورة الفرنسية بتأثير من فلاسفة عصر التنوير . وترجمته للدستور الفرنسى، دستور عام ١٨١٤م .

ثم عمل الطهطاوى فى الترجمة فى المدارس الحديثة التى أنشأها محمد على. وفى عام ١٨٣٦م, عمل فى مدرسة الألسن, ثم رئيسا لتحرير جريدة الوقائع المصرية. وقام فى هذه الفترة بترجمة ما يقرب من العشرين كتابا فى الجغرافيا والتاريخ والعلوم العسكرية. وأشرف على ترجمة المئات من الكتب الأخرى إلى اللغة العربية والتركية. منها كتب فى التاريخ القديم, وتاريخ العصور الوسطى. وتاريخ ملوك فرنسا, وحياة فولتير وبيتر الكبير, وحياة تشارلز الثانى عشر والإمبراطور شارل الخامس وبطرس الأكبر والإسكندر المقدونى وغيرها.

وقد كانت تراجمه لمشاهير وعظماء العالم بطلب من محمد على . نظرا لإهتمامات محمد على الشخصية بحياة العظماء. لأنه كان يحاول تقليدهم والإستفادة من سيرهم. لكن أعمال فولتير وجان جاك روسو ومونتسكيو (ابن خلدون الغرب), كانت من إختيار الطهطاوى نفسه.

إشترك فى وضع السياسة التعليمية للدولة المصرية . وشجع طبع الأعمال الأدبية العربية العريقة, مثل أعمال ابن خلدون فى المطبعة الأميرية ببولاق.

فى السنوات الأخيرة قبل وفاته, نشر عدة مقالات فى إصدارات وزارة المعارف. وألف كتابا عن تاريخ مصر وعن التعليم. مثل كتاب المرشد الأمين للبنات والبنين. وكتاب مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية. وكتابه الأخير يوضح الإتجاه الليبرالى الذى رسمه الطهطاوى للمجتمع المصرى. وكيف كان المجتمع المصرى فى الماضى.

وكيف فقد طريقه. وكيف يعود إليه. ويوضح نظرية الطهطاوى فى التعليم المصرى. التى أتبعت فى عهد إسماعيل باشا والحكام الذين أتو بعده.

لم تخرج نظرية الطهطاوى فى التعليم عن التعاليم الإسلامية. فقد كانت السنة وأحاديث الصحابة فى أمثله وكتاباتة. لكنه أعطى السنة وسير الصحابة بعدا ومفهوما جديدين. لأن الحكومات الإسلامية فى ذلك الوقت، كانت حكومات أوتوقراطية. من الصعب تغييرها إلى حكومات ديموقراطية ليبرالية على النمط الأوروبى دفعة واحدة .

لذلك كان ينادى بالإصلاح التدريجى فى نظام الحكم. فالحاكم يجب أن تكون سلطاته مقيدة بالقوانين. والحكومة يجب أن تكون مسؤولة أمام ممثلى الشعب. أما بالنسبة للشريعة، فهو أول من أشار إلى فتح باب الاجتهاد. وكان من رأيه أنه لا تعارض بين الشريعة والقوانين الوضعية. أى أن الشريعة يمكن أن تفسر فى ضوء الحاجات والمتغيرات الحديثة. مما يضمن للمجتمع ديناميكيته، لإيجاد الحلول لمشاكله أولا بأول.

إذا أراد رجال الدين تفسير الشريعة فى ضوء إحتياجات العصر ، فعليهم أن يكونوا على دراية وفهم عميق بإحتياجات العصر . فالطبيب يجب أن يفهم الداء قبل أن يصف الدواء. فقد كان الطهطاوى يرى أن الفلسفة والعلوم الحديثة، كانت موجودة فى العالم الإسلامى إلى وقت قريب. لكنها ذبلت فى عصره. نظرا لإتباع رجال الأزهر سياسة عدم قبول العلوم الحديثة اللازمة للنهوض بالدول. مثل علوم الإجتماع ونظم الحكم والإقتصاد .

فالأطباء والمهندسين والإقتصاديين, يجب أن يكون لهم الإحترام الذى يحظى به رجال الدين .

العامه يجب تدريبهم على فهم حقوقهم السياسية. والحكام يجب أن تخاف الرعية. وأن تكون العلاقة بين الحاكم والمحكوم, هى علاقة بين الحقوق والواجبات. الثروة القومية وصلاح الأمة يعتمدان على أخلاقها. وطالما كانت الأخلاق قوية, كانت الأمة عظيمة. والطريق إلى الأخلاق هو التعليم. فالتعليم يجب أن يكون متصلا بمشاكل الوطن. والتعليم الإبتدائى, يجب أن يكون إلزاميا للجميع.

التعليم الثانوى يجب أن يكون رفيع المستوى. المرأة يجب أن تتعلم مثل الرجل. وهو بذلك يكون أول من نادى بتعليم المرأة ومساواتها بالرجل قبل قاسم أمين بعدة عقود. تعليم المرأة ضرورى لثلاثة أسباب: الأول, هو التوافق فى الزواج وتربية الأولاد تربية جيدة. والثانى, لإعدادها للعمل فى الأعمال المناسبة لها إذا دعت الحاجة لذلك. والسبب الثالث, لحمايتها من الحياة الخاوية التى تحياها المرأة الجاهلة وسط باقى النساء الجاهلات.

ويواصل الطهطاوى آرائه فى التعليم فيقول أن التعليم يجب أن يهدف إلى تكوين الشخصية الصالحة عند الفرد. وليس مجرد تجميع معلومات. لذلك يجب أن تهتم المدارس بالرياضة البدنية. ويجب أن تراعى النواحي الصحية فى عدد التلاميذ فى الفصل الواحد. والإشراف الطبى والنظافة وخلافه. كما يجب أن تنمى المدرسة المثل والأخلاق الكريمة فى نفوس الطلبة وتشجع الصداقة المخلصة والشجاعة وحرية إبداء الرأى

والعفو عند المقدرة وإحترام الوالدين وكبار السن وما شابه ذلك من قيم نبيلة . وأهم من كل ذلك, الإهتمام بغرس حب الوطن فى نفوس التلاميذ .

حب الوطن هو الدافع الرئيسى لبناء المجتمعات المتحضرة . ونلاحظ أن الطهطاوى فى كتبه, كرر ذكر حب الوطن مرارا وتكرارا. كأنه أراد أن ينبه جيله والأجيال القادمة بأهمية حب الوطن فى بناء المجتمعات الحديثة. وهذا ما رآه فى فرنسا أثناء إقامته فى البعثة التعليمية. فواجبات الفرد نحو وطنه عديدة. منها: الوحدة الوطنية, والإمتثال للقانون, والتضحية بكل ما هو رخيص وغال فى سبيله .

وطنية رفاعة كانت مصرية علمانية صحيحة. لا إسلامية أو عربية . تشمل قدماء المصريين, وأبناء مصر غير المسلمين. وكانت وطنيته تعتبر تقدما وتطورا وحضارة. ترتبط بنظام سياسى علمانى يحفظ الحياة ويصون العدالة والمساواة بين جميع المواطنين. وينمى الإقتصاد ويطور المؤسسات العلمية وفى مقدمتها الجامع الأزهر . لتساهم جميعا فى نشر ثقافة عقلانية تؤدى إلى إزدهار مصر وعظمتها التى كانت لها يوما فى قديم الزمان.

أما حقوق الفرد فهى الحرية. حرية الرأى, وحرية التعبير , وحرية إختيار الحاكم, وحرية إختيار من يمثلونه فى المجالس النيابية. فالحرية فقط هى التى تخلق الوطنية. ونلاحظ هنا أن ابن خلدون كان يرى أيضا أن الوطنية, وكان يسميها العصبية, هى أساس وحدة وقوة المجتمعات. إلا أن ابن خلدون كان يرى العصبية تعتمد على صلة الرحم والدم, بينما الوطنية التى ينادى بها الطهطاوى, تعتمد على صلة المكان والأرض. ففى كتاب

المناهج يقول الطهطاوى: "إن كل ما يربط المؤمن بأخيه المؤمن فى العقيدة، يربط أيضا المصرى بأخيه المصرى فى الوطن. لأن رباط الوطن يأتى قبل رباط الدين. فهناك التزام خلقى لكل من يشارك فى نفس الوطن. لكى يعمل على رفعة ومجد هذا الوطن"

لكن ما هى هذه الوطنية التى ينادى بها الطهطاوى؟ ينادى الطهطاوى بالوطنية المصرية التى تشمل كل من يعيش على تراب مصر. مصر بالنسبة له شئ مختلف. يبدأ تاريخها المتصل منذ عصر الفراعنة إلى العصر الحديث. وقد كتب شعرا أثناء إقامته فى باريس يمدح فيه الفراعنة. ولم تكن مصر القديمة مجرد موضوع للفخر والتباهى. لكنها بالنسبة له، كانت جذور عميقة للحضارة والخلق والإزدهار الإجتماعى والإقتصادى. وإذا كان القدماء فى مقدورهم أن يقيموا هذه الحضارة العظيمة بالإعتماد على أنفسهم، فإن مصر الحديثة تستطيع ذلك. لأن الشعب المصرى لم تتغير خصائصه منذ زمن الفراعنة. وسبب تأخر مصر حديثا، يرجع إلى حكم المماليك والأتراك. وهو بذلك يؤيد ما قاله نابليون بونابرت للمصريين أثناء الحملة الفرنسية.

لم يكن الغرب بالنسبة للطهطاوى هو مجموعة من الدول الإستعمارية التى يجب مقاطعتها ومحاربتها وحماية أنفسنا من حضارتها، كما يحمى السليم نفسه من الأمراض المعدية. لكن الغرب كان بالنسبة له هو العلوم الحديثة والثقافة والفكر والأدب والسياسة والإقتصاد الحديث والأسلوب العلمى فى حل المشاكل. ومصر لا بد أن تأخذ بالعلوم الحديثة. لأن العلوم الحديثة التى تنتشر فى أوروبا اليوم، هى علوم كانت فى الأصل

إسلامية. وإذا أخذ المسلمون بعلوم الغرب اليوم، فهم يستردون ما كان لهم فى يوم من الأيام. والطريق الوحيد للاستفادة بعلوم الغرب، هو طريق الإحتكاك المباشر. أى طريق البعثات والتجارة والصناعة. وهنا يقول: "مخالطة الأعراب، لاسيما إذا كانوا من أولى الألباب. تجلب للأوطان من المنافع العمومية، العجب العجاب "

لكن الطهطاوى يحذرنا من التقليد الأعمى بدون وعى، وإغفالنا لقيمنا وتقاليدينا النبيلة المتوارثة. لأن الحضارة الغربية قد تضع الجانب الأخلاقى فى مرتبة أدنى من الجانب المادى. فمثلا الدستور الفرنسى ينص على مبادئ أساسية للعدالة، لكن هذه المبادئ لا ترقى إلى مبادئ الأخلاق السماوية التى تحض على الإحسان بالوالدين والعطف على الفقير ومساعدة الصغير وإحترام الكبير. وهذا يذكرنا بالقضية التى نشرتها جريدة الديلى نيوز التى تصدر فى نيويورك منذ عدة سنوات. حيث رفع الإبن الأمريكى دعوة لطرده والده ووالدته لعدم سدادهما إيجار الشقة التى يستأجرانها من الإبن. فأمر القاضى بطرد الوالدين من الشقة. وقال فى حيثيات الحكم أنه ينفذ نص القانون، والقانون لا يفهم معنى الرحمة.

لكن تحذير الطهطاوى من بعض جوانب الحضارة الغربية، لا يعنى من قريب أو بعيد الرفض الكامل لها. لأن الإفتتاح عل الغرب وتعلم لغاته وحضارته، لا يشكل الخطر الذى يتخوف منه رجال الدين وبعض مفكرى الشرق. وقد تبنى هذه الأفكار فيما بعد ، رجال مثل جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وأحمد لطفى السيد وطه حسين. إذ كانوا ينادون بالإفتتاح الحضارى على الغرب بفهم ووعى. دون خوف على تقاليدينا وديننا.